مكتبة العربية

المعلم

تصدرها كلية التربية بجامعة بغداد

المجلد التاسع

بعددين

١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م

مطبعة الحكومة - بغداد

فى تاريخ المشكلة اللغوية

للدكتور ابراهيم السامرائى
رئيس قسم اللغة العربية فى كلية الآداب

للغة تاريخ نتبين فيه اصل اللغة ونشوءها وتطورها والمراحل التى قطعتها فى عمرها الطويل حتى نصل فى هذا البحث الى ماآلت اليه فى عصرنا الحاضر ، كما ان لسائر العلوم تاريخا نهتدى فيه للاصول التى قامت عليها تلك العلوم ، ولسائر المراحل التى مرت عليها • والبحث فى العربية يؤدى بنا الى التزام الناحية التاريخية ، واذا قلت ان اللغة العربية بدع بين اللغات فلا أرانى اعدو الصواب كثيرا ، ذلك اننا لا نعرف تاريخ هذه اللغة فى مراحلها الاولى اذ ليس من المعقول أن هذه اللغة بدأت بهذه النصوص الشعرية الجاهلية • فهذه النصوص الشعرية الجاهلية تقدم للباحث نماذج عالية من العربية ، وهذه النماذج لايمكن أن تكون بأى حال من الاحوال من البدايات فى اللغة ، فلا بد أن تكون العربية قد قطعت قبل هذه النصوص مراحل اخرى من تاريخها لم تكن فيها على هـذا المستوى العالى من حيث قدرة اللغة على اداء المعانى ومن حيث توفر المادة العربية للتعبير عن النواحى المادية وانصرافها الى المعنويات من الامور توسعا ومجازا • ولا اريـد أن أخوض فى موضوع الصحيح والمنحول من هذه النصوص ، فليس ذلك بضائر قيمـة النصوص اللغوية ، وأنها صورة للحياة الجاهلية ، ذلك أن وجود المنحول من هـذه النصوص لا يمنع من وجود الصحيح ونسبته الى قائليه •

ولابد أن أن نبين أن الآثار الادبية فى العصر الجاهلى شعرية فى الغالب ، والنثرية منها قليلة جدا ، وهى ان وجدت ، فلا يصح الاطمئنان اليها • والى هذا ذهب الكثيرون من الذين عنوا بتاريـخ الادب الجاهلى • ولا اريد أن اخضع الامثال القديمة الجاهلية للمادة التى لا يطمأن اليها ، فالامثال ـ على انها نثرية ـ لانستطيع أن نعدها من النثر العالى الذى يقصد اليه الباحثون فى تاريخ الادب ، ذلك أنها مادة شعبية تعكس التجارب التى مرت بهـا المجتمعات القديمة • والامثـال تعرض لاية أمة من الامم ولا سيما البدائية منهـا •

على أن الباحث فى النصوص الشعرية الجاهلية واجد فيهـــا من عيوب النظم شيئا لا يجده فى النصوص الشعرية فى العهود الاسلامية ، وهذه العيوب تتعلق بالحفاظ على الوزن فى الشعر •

وهذه الظاهرة لا يمكن تفسيرها الا بالناحية التاريخية • واعنى بذلك أن هـــذه النصوص لم تكتمل موسيقاها وأنها مرحلة من مراحل التطور الفنى من حيث المبنى فى القصيدة العربية • وانت واجد هذا الخروج عن ضوابط الوزن عند ســـائر الشعراء الجاهليين ، فدونك معلقة امرىء القيس لتجد فيها قوله :

اذا قامتـــا تضـوع المسك منهـــا نسيم الصـبا جـاءت بريا القرنفـــل

وقوله :

الا رب يومٍ لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجـــل

وقوله :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر الا لبسة المتفضل

وقوله :

اصـاح ترى برقاً اريك وميضـه كلمـع اليدين فى حبيّ مكلل

وقوله :

قعدت له وصحبتى بين ضارج وبـــين العنيب بعـد مـا متأمـلى

وانت واجد شيئاً من هذه المخالفات فى شعر طرفة بن العبد كقوله :

كأن البـــرين والدماليـــج علقت على عشر أو خروع لم يخضّـد

وقوله :

عن المـرء لا تسأل وأبصـر قرينـه فان القرين بالمقـارن مقتـــدى

ومنه ما جاء فى قصيدة زهير ، كقوله :

رعوا ما رعوا ظمئهم ثم اوردوا غماراً تفرّى بالســـلاح وبالدم

مكتبتنا العربية

وهذه من السمات البارزة فى القصيدة الجاهلية ، وربما كان شيء منه فى شعر المخضرمين من الشعراء • وهو من غير شك دليل على ان القصيدة العربية الجاهلية فى طور التكوين من الناحية الفنية Technique وانها منتقلة من مرحلة الى أخرى وفى كل مرحلة من هذه المراحل تستفيد شيئاً لاستكمال عناصرها الفنية •

ولم يؤثر عن الجاهليين نصوص نثرية كثيرة كما هى الحال فى الشعر ، وسبب ذلك معروف عند الباحثين فى تاريخ الادب الجاهلى ، وليس من غرضنا فى هذه المقالة أن نعرض لهذا الموضوع • على انه لا بد أن نقرر أن أمة تتسع لغتها لهذه النصوص الجميلة العالية من الادب لابد أن يكون لديها شيء من النثر ، ولكن هذه النصوص النثرية التى نفترض وجودها لم تصل الينا • اذاً فالباحث فى النثر العربى مضطر أن يبتدىء بالقرآن الكريم ويعد نصوص القرآن بداية هذا اللون الادبى من الناحية الواقعية ، وهو مضطر ايضاً أن يفترض أن النثر العربى لابد أن يكون قد مر بمراحل تأريخية •

ولغة القرآن واسلوبه يطلعان الباحث على مستوى رفيع من حيث المبنى وغزارة المادة اللغوية ، ومن حيث قدرة هذه القوالب اللفظية على الاعراب عن دقائق المعنى ، وخواطر الفكر ، ولعل هذا كان السر الذى حدا بالباحثين الى القول بالاعجاز فى القرآن •

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

والبحث فى تاريخ القرآن يدلنا على ان لغة القرآن قد طبعت العربية بطابع واضح مبين وقضت بذلك على آثار اللهجات الاقليمية ، واطلعت المجتمع العربى الاسلامى الاول على نموذج عال لهذه اللغة ، فأخذوا بها • وفى القرآن ينكشف الستار عن عالم فكرى تحت شعار التوحيد لاول مرة فى تاريخ اللغة العربية ، بحيث لا تعد لغة الكهنة والعرافين الفنية المسجوعة الا نموذجاً ضعيفاً له ، من حيث ظاهر وسائل الاسلوب ، ومسالك المجاز والدلالة(١) • والى مثل هذا ذهب المستشرق الفرنسى الكبير (ريجيس بلاشير) فى محاضرة له ، فهو يقول : ومنذ ظهر الاسلام لم تعد اللغة العربية آلة عادية للكلام والتخاطب ، ولا لغة انسانية محضة بل شيئاً آخر • نعم لن نفهم جوهر العربية وكيانها ، بل لن نستطيع لها فهماً ان نحن اهملنا اهمية هذا « الحدث القرآنى » هذا الحدث الذى يفضله

---

(١) يوهان فك ، العربية ٥ •

مكتبتنا العربية

تجاوزت اللغة حدود الانسانية المحضة[٢] .

والبحث فى تاريخ العربية يدلنا على الجهود التى بذلت كى تسود لغة التنزيل فى وضوحها والتزامها الاعراب ، ولتكون لغة عامة يعرفها كل العرب لا أثر فيها للغات الخاصة التى اعتاد كل طائفة منهم استعمالها والقراءة بها ، فقد ورد ان عمر بن الخطاب قد سمع رجلا يقرأ (عتى حين) فى قوله تعالى : (ليسجننه حتى حين)[٣] ، فقال من اقرأك ؟ قال : ابن مسعود ، فكتب اليه : ان الله انزل هذا القرآن عربيا ، وانزله بلغة قريش ، فأقرىء الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل[٤] .

وما استطاعت لغة القرآن والحديث أن تأتى على اللهجات الدارجة المحلية ، أو قل على العربية المستعملة السهلة ، والتى تخفف من قيود الضوابط الاعرابية الثقيلة . ومن هنا فالعربية شفعية التعبير منذ ان كانت ، ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب فى كتابته ، وهى ملتزمة بضوابط الاعراب ، ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا انفسهم بعناء هذه الضوابط ، وربما تعدى الامر مسألة الاعراب الى الالفاظ نفسها ، فقد يكون فى الفاظ الثانية ماهو بعيد عن العربية ، وأنه قد دخل فيها نتيجة اتصال العرب انفسهم بغيرهم من الاقوام ، والاتصال حاصل فى كل عصر ، فقد تهيأ للعرب فى أطراف شبه الجزيرة العربية أن يتاخموا اقواماً غيرهم ، فلم تسلم بذلك سليقتهم . ومن أجل ذلك حرص عمر على الأخذ بقراءة تعتمد على لغة قريش ، والى مثل هذا كان يرمى عثمان من جمعه القرآن ليكون المسلمون مجتمعين على قراءة واحدة فنبذوا ماكان عندهم مما هو مغاير لما اتفق عليه .

ولا يعدم الباحث أن يجد فى كتب التفسير والقراءات وكتب الغريب وكتب النحو من هذا الباب شيئاً كثيراً من القراءات . ومرد ذلك ان الناس قد اعتادوا على أساليب فى التعبير خاصة بهم ، وبذلك قرأوا . وان طائفة كبيرة من هذه القراءات الخاصة قد اعتبرت من شواذ القراءات . ونتبين من البحث فى لغة القرآن أن هذا الحدث القرآنى العظيم قد عمل على توحيد العربية وطبعها بطابع خاص فيه الشمول وفيه العموم بحيث تيسر

---

(٢) ر . بلاشير ، مجلة الفكر العدد الخامس ١٩٦٠ ص ١٦ .

(٣) يوسف ٣٥ .

(٤) الزمخشرى ، الكشاف ٣/٤٦٨ .

لهذه اللغة أن تكون لغة العرب عامة وانها تغلبت على الكثير من معالم اللهجات السائرة •

ووجود اللهجات السائرة وتنصلها عن التمسك بقيود الاعراب دليل على ظهور مرحلة جديدة فى تاريخ العربية أو شكت أن تعم لولا ما كان من أمر لغة التنزيل • وفى هذه المرحلة الجديدة تخففت العربية من ضوابط الاعراب •

على أن المعلومات التى بين أيدينا عن اللهجات الخاصة لا تتعدى الاشارات الموجزة والعلامات التى لا تعدو أن تكون ملاحظات لا تكون فى مجموعها مادة كافية لرسم صورة للهجة من اللهجات فى بداية القرن الاول الهجرى ، ذلك ان النحويين واللغويين قد جمعوا هذه الملاحظات منذ ان بدأوا فى تثبيت قواعد العربية ، وظلت هذه الملاحظات تتناقل من جيل الى جيل دون تصنيف وضبط بحيث لا نستطيع أن ننسب على وجه التحديد أية اشارة من هذه الاشارات اللغوية الى اصحابها ، والامثال كثيرة للبرهنة على ترددهم وعدم تحريهم وجه الصواب فى هذه الاشارات بحيث يبدو فيها للباحث أثر الاصطناع والكذب والتقليد فقد جاء فى كتب الادب قول هوبر الحارثى :

تزود منا بين أذناه ضربة دعته الى هابى التراب عقيم[٥]

وفى البيت التزام المثنى الالف فى جميع الاحوال ، وهى لغة بنى الحارث بن كعب، وهى عند هؤلاء قلب الياء الساكنة اذا انفتح ما قبلها الفاً فيقولون : أخذت الدرهمان ، واشتريت ثوبان[٦] • وفى هذه اللغة ان الف حرفى الجر (الى) و (على) تبقى على حالها اذا كان مدخولها ضمير غائب او مخاطب ، كما جاء فى النوادر لابى زيد الانصارى، أن المفضل الضبى ذكر لبعض أهل اليمن قوله :

أى قلوص راكب تراها طاروا علاهن فطر علاها[٧]

ولم ينسب السيوطى هذه اللغة لبنى الحارث بن كعب وحدهم ، فقد عزاها لبنى

---

(٥) لسان العرب ١٠/٦٤ ؛ ١٩/١٦٣ ؛ ٢٠/٢٢٦ •

(٦) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ٣٦ ، ابن فارس ، الصاحبى ٢٠ •

(٧) ابو زيد ، النوادر ٥٨ ؛ ابن فارس ، الصاحبى ٢٠ •

العنبر وبنى الهجيم وبطون من ربيعة وبكر بن وائل وزبيد وخثعم وهمدان ومزادة وغدرة[٨] .

وهذه الاشارات لاتتجاوز مسائل الابدال والقلب وسائر الحركات وما يتعلق بشيء قليل من الامور الصوتية ، ولم يعدها بعضهم من المستساغ المقبول ، فالسيوطي يحشرها في باب « الردىء المذموم من اللغات »[٩] كالكشكشة والكسكسة والتلتلة والعنعنة والفخفخة والعجعجة وغيرها . كما انها غير منسوبة نسبة صحيحة كما اشرنا ، فالعنعنة لغة قيس وتميم عند السيوطي ، وهي تعرض في لغة قضاعة عند الثعالبي[١٠] ، وفي لسان العرب غير هذا[١١] .

واذا كانت هذه اللهجات لا تعطي الا صورة شوهاء غير كاملة لمرحلة لغوية في تاريخ العربية ، فهل لنا ان نجد ذلك في تاريخ اللهجات العربية الجنوبية كالمعينية والحميرية والسبئية او في اللحيانية والثمودية والصفوية والنبطية ؟ والجواب عن هذا السؤال أن بين هذه اللهجات جميعها وبين العربية الفصحة كما عرفناها في لغة القرآن أو في لغة ما صح من النصوص الجاهلية فروقا بعيدة ، ومعنى ذلك انه ليس من المعقول اتخاذ أية لهجة من هذه اللهجات صورة للعربية الاولى ، أو صورة للمرحلة التي سبقت الفصيحة المعروفة في لغة القرن الاول الهجري . ونحن نطرق هذا السبيل لعدم توفر النصوص الصحيحة المدونة في هذه المرحلة اللغوية التي ننشدها ، ثم اننا نجرب هذه التجربة لان بين أيدينا من هذه اللهجات نصوصا مكتوبة وهي النقوش التي أهتدى لها العلماء في بحوثهم التنقيبية . على ان طائفة من هذه النقوش مكتوبة بالآرامية وهي اللغة الثقافية كما هي الحال في النقوش النبطية[١٢] ، فقد كتب النبط نقوشهم بالآرامية وان كانت لغتهم عربية[١٣] .

---

(٨) السيوطي ،همع الهوامع ١/ ٤٠ .

(٩) السيوطي ، المزهر ١/ ٢٢١ .

(١٠) الثعالبي ، فقه اللغة .

(١١) لسان العرب : قال الفراء : تميم وقيس واسد ومن جاورهم يجعلون الف (أن) اذا كانت مفتوحة عيناً .

(١٢) Dhorme, Langue of ériture sémitique.

(١٣) دوسو ، تاريخ العرب في سوريا ٢٧ .

ويتبين من هذا العرض ان المواد الضرورية لم تتوفر لنا لمعرفة المرحلة اللغوية التى سبقت عصر القرآن ، فلابد اذن أن نسلك سبيلا آخر للوصول الى شيء مما نصبو اليه ، وذلك بالرجوع الى نصوص العربية المثبتة في كتب اللغة والادب والنحـــو ونستقرئها استقراءً دقيقا لنخلص الى موضوعات نؤلف منها مادة لغوية اتصفت بها المرحلة السابقة لعصر القرآن .

وهذه المادة اللغوية تشتمل على معلومات تتعلق بالابنية والصـــيغ والاوزان كما تتعلق بمسائل خاصة ببناء الكلمة فى العربية وكيف توفر لبنية هذه الكلمة الانســـجام والتكافؤ الموسيقى ، ولنعرض الآن الى هذه المسائل .

(١) الإبتداء :

والذى نلاحظه أن العربية لا تستسيغ الابتداء بالساكن من الحروف ، ولذلك قرر الخليل بن أحمد أن « حرف اللسان لاينطلق بالساكن من الحروف »[١٤] . والعربية لا تجيز هذا كما اجازت ذلك اللغات الاجنبية الكثيرة ، ولهذا يستعان بالهمزة المفتوحة للتوصل الى النطق بالساكن متخذة وسيلة أو قل معبراً الى هـــذا الساكن من الحروف ليظهر فى سكونه .

وكان يقول ـ بعد تمثيله للخماسى من الافعـــال ـ : « الالف التى فى اسحنكك واقشعر واسحنفر واسبكرّ ليست من أصل البناء ، وانما ادخلت هذه الالفات فى الافعال وامثالها من الكلام لتكون عمادا وسلما للسان الى الحرف الساكن »[١٥] .

وسأل الخليل جماعة فقال : كيف تلفظون بالحرف الساكن ، نحو ياء غلامى وباء اضرب ودال قد ؟ فقالوا له : نقول ياء وباء ودال ، فلم تعجبه اجابتهم ، لانهم انما لفظوا بالاسم ولم يلفظوا بالحرف ولم يحكوه ، كما هو فى غلامى واضرب وقد . فقال لهم : اقول : أب واى واد ، فالحق الفاً موصولة . قال : كذلك اراهم صنعوا بالساكن ، الا تراهم قالوا : ابن واسم حيث اسكنوا الباء والسين ، وانت لاتستطيع ان تكلم بساكن فى اول الاسم كما لا تصل الى اللفظ بهذه السواكن فألحقت الفاً حتى وصلت الى اللفظ بها ،

---

(١٤) الخليل ، الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٢ عن المخزومى فى الخليل بن احمد الفراهيدى ١٧٦ .

(١٥) المصدر السابق .

فكذلك هذه الالفات حتى تصل الى اللفظ بها كما الحقت المسكن الاول في الاسم[١٦] .

والكلمة العربية اتصفت بالتكافؤ والانسجام بين اجزائها في الحركات والاصوات ، ومن أجل ذلك يؤتى بالهمزة التي يستعان بها على النطق بالساكن مكسورة او مفتوحة ، او مضمومة اذا كان الحرف الذى يلى الساكن مضموماً مثل أستنصر واعترف فتضم الهمزة، ليتماثل الصوت ويكون العمل فيهما على وجه واحد[١٧] .

والذى اريد ملاحظته في هذا الباب هو القول بأن المرحلة السابقة لهذه العربية الفصيحة كانت تجيز الابتداء بالساكن ، والذى يقوى هذا الافتراض عندى قولهم : ان امر الثلاثى في العربية همزته همزة وصل ، والناطق المجيد لهذه البنية لا يحس بهذه الهمزة ، فلسانه ينطلق بالضاد في كلمة اضرب (الامر) قبل أن ينطلق بشيء اسمه الوصل واجادة النطق تستدعى محو هذه الالف اطلاقا . وعلى هذا جاء نطق المغاربة في ايامنا هذه ، فهم ينطلقون بالساكن في افعال الامر الثلاثية ، ومن اجل ذلك فان ما ندعوه بالنبر "Accent Tonique" يكون عندهم واقعا في نهاية الكلمة . ومثل هذا تنطلق بالساكن اذا بدأنا بالاسماء التي نصوا على أن الفاتها للوصل كما في (ابن) و (اسم) فانت تنطلق بالساكن او بشيء فيه يكون او بنصف الساكن ان اسعفتنا لغة الاصطلاح ، حتى يتم النطق بالكلمة على الوجه اللازم .

ووجود هذه الناحية ربما كان دليلا على الابتداء بالساكن في العربية التي سبقت هذه المرحلة الفصيحة كما يقوى هذا القول استساغة الانطلاق بالساكن في سائر اللغات السامية الاخرى ، بل ربما كانت الآرامية السريانية اشد قبولا للبدء بالساكن من المتحرك، ومن أجل ذلك صارت هذه الناحية من ميزاتها الظاهرة .

(٢) التقاء الساكنين :

اختصت العربية من بين سائر اللغات السامية بهذه الناحية مراعاة منها للتكافؤ والانسجام في بنية الكلمة الواحدة وفي اتصال الكلمة بغيرها حتى يجيء الكلام العربي على هيئة مخصوصة موسيقية منسجمة .

---

(١٦) سيبويه ، التكاب ٢/٦٢ .

(١٧) المصدر السابق ٢/٢٧٢ .

مكتبتنا العربية

على ان الباحث فى غرائب العربية وفرائدها واجد من هذا الباب شيئاً وهو قليل جداً ، وقلته ذات دلالة خاصة ، فهى تشير الى وجود التقاء الساكنين فى تلك المرحلة اللغوية السابقة للمرحلة المعروفة ، والا فكيف نعلل وجود الساكنين فى كلمتى(حمارّة) و (صبارّة) فى قولهم : حمارة القيظ وصبارة القر ، ومثل هذا ما حدث من التقاء الساكنين فى اسماء الفاعلين من الافعال الثلاثية المضعفة مثل (حالّ) و (مادّ) ، ذلك ان العربية توجب الادغام فى هذه الالفاظ ووجوب الادغام يستدعى التقاء الساكنين والذى أراه أن من العرب من كان يجيز فك الادغام مخالفة للقياس المعروف ، ومطاوعة منه لسنن العربية التى لا تحتمل التقاء الساكنين فكان يفك الادغام فى هذه الالفاظ وعلى هذا جاء قول المتنبى :

فلا يبرم الامر الذى هو حالل الى آخر البيت ...

وليس معقولا ان يحمل هذا على تخطئة المتنبى ، فقد كان عالما بشوارد اللغة والنحو فلا يجوز أن يكون جاهلا بهذا ، ثم انه لم يلجأ الى ذلك ضرورة شعرية فقد كان فى طوقه أن يتحاشى هذه الضرورة ـ ان صحت ـ باستعمال مرادفة لكلمة حال (حال) وذلك كثير ميسور . اما الذى سوّغ له استعمال الكلمة احتمال فك هذه الادغام فى لغة من لغات الناس فى ذلك الزمان هروبا من التقاء الساكنين ، كما هى الحال فى ايامنا هذه فى لغتنا العامية الدارجة ، فهناك من يلتزم ادغام هذه الالفاظ محتملا التقاء الساكنين كما أن هناك من يلجأ الى فك الادغام هروبا وتخلصا فيقول مثلا (دازز) و (شادد) بدلا من (دازّ) و (شادّ) .

وقد هربت العربية من احتمال التقاء الساكنين فى بنية الكلمة الواحدة الثلاثية الساكنة العين ، اذ يلتقى فيها ساكنان العين واللام لان اواخر الكلمة سواكن اذا لم تدخل هذه الكلمات فى جمل او اذا ما وقف عليها كما تقول (فخذ) باسكان الخاء فى (فخذ) المكسورة الخاء[١٨] . وفى خزانة البغدادى ان الفعل الذى عينه حرف حلق وكان على (فعل) بكسر العين فلك فيه اربع لغات كالحال فى (فخذ)[١٩] ، وفى (الاقتضاب)

---

(١٨) المبرد الكامل ٢/١١٤ .

(١٩) البغدادى ، الخزانة ٤/١٠١ .

مكتبتنا العربية

جواز تخفيف عين (فعل) مضموم العين ومكسورها[٢٠] .

وفي المحتسب لابن جني : ما سمع فيه (فعل) بضم الفاء واسكان العين الا وسمع فيه (فعل) بضم الفاء والعين[٢١] ، ومنه اسكانهم نحو (رسل) و (عجز) و (عضد) و (كتف) و (كبد)[٢٢] .

والحكمة في هذا التحريك هو الهروب من التقاء الساكنين كما بيناه . على اننا نجد مثل هذا في لهجتنا العامية البغدادية في الاسماء الثلاثية التي نضطر الى تحريك عينها بحركة مناسبة هروبا من التقاء الساكنين فنقول (فعل) بكسر العين مجاراة لكسرة الفاء ولالتقاء الساكنين كما في (اسم) و (عجل) ، ونقول (تمر) بضم الميم و (قبر) باسكان العين فيهما . والسبب في ذلك ما بيناه لاننا لو رجعنا الى نطق هذه الكلمات في لهجة عامية أخرى ، ولتكن اللهجة المصرية لوجدنا المصريين ينطقون هذه جميعا باسكان العين احتمالا منهم لالتقاء الساكنين .

واذا اردنا استقراء النصوص الفصيحة وجدنا هذه الناحية في الافعال المضعفة المزيدة بثلاثة احرف كما في وزان (افعالّ) مثل (احمارّ) وهذه الافعال قليلة وقلتها تشير الى انها من بقايا المرحلة السابقة اللغوية التي اشرنا اليها . فهذه الصيغة قديمة وهي دالة على المبالغة ، وهي ثقيلة لوجود الساكنين ، ثم تخففت في الاستعمال فخضعت لسنة العربية الفصيحة في المرحلة اللاحقة فاستحالت الى (احمرّ) وهي في المعنى نفسه والمبالغة حاصلة فيها ، وليس كما علل الصرفيون بأن المبالغة في الاولى اكثر . ومن هذا قولهم : غارّ الطائر فرخه بتشديد الراء في (غار)[٢٣] ، ففي هذا الفعل قد التقى الساكنان ، ومنه ايضا (غارت الناقة في الحلب) ، وما قلناه في (احمارّ) و (احمرّ) يصدق على قولهم (غارّ) فقد تخفف هذا الفعل حتى لجأ الاستعمال الى (غرّ) الثلاثي المضعف وفي ذلك كفاية وغناء .

---

(٢٠) ابن السيد ، الاقتضاب ٢٠١ .

(٢١) ابن جني ، المحتسب ١/١٩٠ .

(٢٢) ابن جني ، الخصائص ١/٧٥ .

(٢٣) المبرد ، الكامل ١/٣٧ .

مكتبتنا العربية

(٣) ابدال احد التضعيفين بالياء :

وما زلنا نحمل على الخطأ او على طريقة العوام فى لهجتهم الدارجة قولهم (استمريت) باسناد الفعل استمر المضعف الى تاء الفاعل • وفى العربية الفصيحة شيء من هذا وهو قليل ، ولعل قلته راجعة الى أنه من البقايا اللغوية القديمة التى تشير الى مرحلة لغوية قديمة قد سبقت الفصيح المعروف والممثل فى لغة التنزيل والحديث • والى هذا ذهب المبرد فى شرح كلمة (التقضّى) فى قول العجاج :

تقضّى البازى اذا البازى كسره

والتقضى الانقضاض والعرب تبدل الياء من احد التضعيفين فيقولون (تظنيت) والاصل (تظننت) لانه من الظن[٢٤] • ومنه (قصصت) و (وقصيت)[٢٥] • والمستقرىء للنصوص اللغوية واجد من هذا الموضوع شيئاً يصلح أن يكون مادة مفيدة للبحث •

(٤) اسم المفعول :

فى اسم المفعول من الفعل الثلاثى الاجوف فذلكة لغوية فنقول : (مبيع) من (باع) و (صان) ، وهذه الفذلكة داخلة فى باب الاعلال وليس بنا حاجة لشرحه فى هذا المقام ، وانما نريد أن نقول أن لهجاتنا الحديثة الدارجة لا تلجأ الى هذا الاعلال ، بل تصوغه على وزن مفعول فتقول (مبيوع) ، وهذه الصيغة واردة فى الفصيح من العربية ولكنها مسموعة وسماعها يخالف القياس المشهور وهو دليل على انه من البقايا اللغوية القديمة التى تتسم بها المرحلة السابقة التى اشرنا اليها •

وقد جاء من هذا الباب (مصوون) و (مقوود) و (مقوود) و (ومعوود)[٢٦] • وفى القاموس اسعده فهو مسعود[٢٧] • واكمده فهو مكمود[٢٨] • والقح الفحل الناقة فهى (ملقوحة)[٢٩] • وهذه الامثلة تشير الى أن وزن (مفعول) هو اصل فى

---

(٢٤) المبرد ، الكامل ٢/ ٧٦٠ •

(٢٥) ابن السيد ، الاقتضاب ١٣٧ •

(٢٦) المصدر السابق ٢٧٤ ـ ٢٧٥ •

(٢٧) الفيروزابادى ، القاموس ، مادة سعد •

(٢٨) لسان العرب مادة كمد •

(٢٩) المصباح المنير مادة لقح •

صيغة اسم المفعول ولا يختص بهذه الصيغة الفعل الثلاثى ، ولعل فى هذه الامثلة دليلا على قدم هذه الصيغة فى مراحل اللغة الاولى •

(٥) مطل الحركات :

افرد ابن حنى فى كتاب الخصائص فصلا لموضوع مطل الحركات والمراد بمطل الحركات مد الحركات ، وقد استفادت العربية من هذا المد كثيراً فى تنويع الصيغ وتكثير المعانى • فقد مدت ضمة العين فى المضارع كما فى (ينبع) فصار (ينبوع) ومثل هذا (يحمور) و (يخضور) و (يعفور) ، وقد انتقلت هذه الصيغ فى العربية الى الاسمية وهو كثير فى اللغة • على انه لا تخفى الصلة فى هذه الالفاظ بين الفعلية والاسمية فعلاقة اللون واضحة وربما هى التى سوغت هذا الانتقال اللغوى • ونستطيع أن نفترض أن يكون اصل الفعل المضارع فى مرحلة لغوية قديمة على هذا الشكل • ومعلوم أن بين الاسم والفعل المضارع شبه ولهذا سمى بالمضارع لانه مضارع للاسم المعرب • والتسمية بالافعال المضارعة قديمة جداً فقد عرف (يغوث) و (يعوق)[٣٠] من آلهة اليمن •

ومما يتعلق بباب مطل الحركات كلمة (اليعقيد) وهو العسل يعقد بالنار حتى يخثر ، وقيل طعام يعقد بالعسل ، ومنه اليعضيد وهى بقلة زهرها اشد صفرة من الورس وقيل غير هذا[٣١] •

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ونستطيع أن ترد صيغة فاعول الى مطل الحركات فالعمود لابد أن كان (عامود) ثم خفف الى (عمود) وليس لنا أن نحمل العامود على الكلام العامى فمثله الشاقول والناعور وكثير من اسماء الادوات •

وفى كتب اللغة نصوص تشهد على هذا الباب فقد انشد ابو على الفارسى لابن هرمة يرثى ابنه : من قوله :

فانت من الغوائل حين ترمى ومن ذم الرجال بمنتزاح

واراد بمنتزح •

وهذه المواد تعطينا بعض الشىء عن خصائص العربية القديمة قبل أن تتوحد

---

(٣٠) الكلبى ، الاصنام ٥٧ •

(٣١) الزبيدى ، تاج العروس ، انظر مادتى عقد وعضد •

وتنسجم فى قالبها المعروف الفصيح •

(٦) صيغ الفعل المجرد :

المعروف عند الصرفين أنهم صنفوا الافعال الثلاثية فى ستة اوزان ورتبوها حسب ورودها فى الكثرة غير أن الناظر فى النصوص وفى كتب اللغة يجد فيها شيئا يؤدى به الى الاعتقاد أن هذه الافعال لم تكن مستقرة ولاسيما فى القرن الاول الهجرى ، وأن فعلا من الافعال مثلا قد يكون على الوزن الاول (باب نصر) عند قوم من الناس ، ولكنه من (باب ضرب) عند آخرين • وبقيت هذا التردد فى اعتبار وزن الفعل طوال القرن الاول والقرن الثانى ، حتى اذا تم تثبيت قواعد اللغة ، استقرت هذه الافعال على حال ثابتة ولا سيما الافعال التى يكثر تداولها فى التخاطب والكتابة على الاقل •

ولقد ورد شيء من هذا الذى نذهب اليه على السنة علماء اللغة ، فقد قال ابو زيد الانصارى : اذا جاوزت المشاهير من الافعال فانت بالخيار بين الضم والكسر[٣٢] • وقال الفرّاء : الاصل فى المضارع الكسر[٣٣] •

وهذا التردد فى معرفة الاوزان وضبطها وتثبيتها قد تم فى لغة القرآن بالرغم من ان كتب اللغة ظلت تذكر اللغات المختلفة فى وزن الافعال التى اختلفوا فيها ، فقد قالوا فى (فسد) هو من باب نصر عند قوم ، وهو من باب (كرم) على رأى آخرين • وهذه الحال تدل على ان الافعال الثلاثية فى المرحلة السابقة لعصر القرآن لم تكن مستقرة على حال وكان الحكم فيها للقائلين يؤلفون بين حركاتها كما يشاءون •

(٧) الجموع :

الجموع من المواد اللغوية القديمة ، وقد احتفظت بها اللغة العربية • وربما دلت كثرة الجموع فى العربية على اختلاف اللهجات ولا سيما جموع التكسير ، ويعنى هذا اننا نجمع كلمة واحدة على عدة صيغ من صيغ الجمع (Chème)فالشيخ يجمع على (شيخة) ويجمع على (شيوخ) بضم الشين وعلى (شيوخ) بكسر الشين وعلى (اشياخ) ، ومثل هذا كلمة (الحب)بكسر الحاء فتجمع على (أحباب) ، و (حبان) بكسر الحاء وتشديد الباء ، و (حبوب) و (حبة) بكسر الحاء ، و (حب) بضم الحاء[٣٤] • ومثل

---

(٣٢) الفيروزابادى ، مقدمة القاموس •

(٣٣) لسان العرب مادة اتى •

هذا كثير فى اللغة العربية وهو دليل على أن الجمع لم يستقر على حال وأنه يشير الى المرحلة التى كانت فيها اللغة غير مستقرة على صيغ ثابتة ، ومن اجل هذا حدثت هذه الكثرة فى الصيغ ، وسبب هذه الكثرة راجع الى اختلاف الاقوام واختلاف الجهات •

وفى جمع المذكر السالم الفاظ سماها النحاة الاقدمون بالملحقات وذلك لعـــدم انطباق الشروط التى اتفقوا عليها فى جمع الاسم هذا الجمع المعروف وبقاء هذه الالفاظ التى الحقت بجمع المذكر السالم يشير الى مرحلة لغوية قديمة ، تلك المرحلة التى لم تتقيد فيها اللغة بضوابط واضحة • وهذه الالفاظ هى الفاظ العقود مثل (عشرون) واخواتها ، وارضون ووابلون واهلون وعالمون ، ومن هذا الباب أصول ثنائية (Bieitère)

مثل (بنون) و (مئون) و (قلون) و (سنون) و (عضون) كما فى قوله تعالى : « الذين جعلوا القرآن عضين »[٣٥] أى فرقوه أعضاء ، ومثله (عزين) جمع عزة أى فرقـة • ومنه ثبة قد جمعت على (ثبون) كما فى قول عمر بن كلثوم :

فأمـــا يوم خشيتنا عليهـــم فتصبح خيلنـــا عقباً ثبينا[٣٦]

ويتبين من هذا أن هذه المواد اللغوية المتخلفة عن مرحلة قديمة بقيت فى العربية الممثلة فى لغة القرآن ولغة النصوص الجاهلية التى يطمأن الى صحتها •

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(٨) الابنية الغريبة :

واقصد بالابنية تلك الصيغ التى وجدت فى النصوص اللغوية القديمة والتى لـم يكتب لها الشيوع لثقلها ولطول بنائها والتى عدت من باب الغريب مرة ومن باب الوحشى المهجورة مرة أخرى •

ولابد من ضرب الامثال على هذه الابنية الغريبة لنخلص الى نتيجة من النتائـج ، جاء فى النوادر لابى زيد المبرنتى[٣٧] هو الغضبان الذى لاينظر الى أحد ، وكان عـــلى ابى زيد أن يأتى بالشاهد لنكون على بينة ، وهذه الناحية من العيوب فى المعجم العربى

---

(٣٤) لسان العرب مادة حبب ٠

(٣٥) سورة الحجر ٩١ ٠

(٣٦) معلقة عمر بن كلثوم ضمن شرح العشر ١١٦ ٠

(٣٧) ابو زيد ، النوادر ١٣٠ ٠

القديم لانهم لا يهتمون باستقراء الاستعمال لتأييد المعنى الذى ينصون عليه ، وربما كان هذا حجة لمن يقول بالاصطناع والاختراع فى المعانى ، وان اللغوى يلجأ الى هذا الباب ليظهر أنه عارف باللغة وفرائدها • ومثل هذا كثير فى كتب اللغة المطولة • ولابد من دليل آخر على اصطناع هذه الالفاظ وهو انهم يذكرون للفظ الواحد معانى عدة لا علاقة بينها فقولهم : محبنطىء وهو العظيم البطن ، والممتلىء غيظا • والمحرنجم هو الذى يريد الامر ثم يكذب فيرجع[٣٨] ، فى حين أن (احرنجم) عندهم بمعنى اجتمع ووجه العلاقة بين الاسم والفعل غير موجود اطلاقا •

وقد افرد ابن دريد فى الجمهرة فى الجزء الثالث باباً للاوزان الغريبة كالفعلل مثل الهمرجل للخفيف السريع ، والشمردل للطويل والدلهمس للجرىء الماضى على الليل ، والجلنفع للصلب الشديد والعلنكد للصلب الشديد والعدبّس للشديد الحلق •

وفى وزن الفعلول الشغموم للناقة القوية والطلحول والصعلوك للفقير ، والقرضوب للص ، واللموظ للشره والنهم ، والصحمور للعظيم البطن •

ومن الفيعلى ، الهيذبى والخيزلى •

ومن الفيعلول ، الناقة العيسجور النشيطة ، والخيتعور للذى لا يدوم على العهد •

ومن الفعوال ، القرواح للنخلة الملساء •

ومن الفيعول ، العيثوم الناقة الغليظة • وسيهوج وسيهوك اسمان توصف بهما الريح •

ومن الفيعال ، الهيذام وهو الصارم[٣٩] •

وهذه الابنية غريبة كثيرة اجتزأنا بهذا القدر منها ، ونريد أن نقول فيها شيئاً وهو أن الغالب فيها ذو دلالة مادية فلا ينصرف الى الناحية المجازية وأن المعانى التى ترد فى هذه الابنية متعلقة بالاوصاف الحسية كالطول والقصر والضخامة والعظم والدقة وشدة الحلق والسرعة والخفة وغير هذا مما هو داخل فى هذا الخصوص • والخلق والاصطناع

---

(٣٨) المصدر السابق ١٩٨ •

(٣٩) ابن دريد ، الجمهرة ٣/ ٣٨٠ •

واضح فى هذه الابنية فالالفاظ التى تعنى شدة الخلق فيها كثيرة ومختلفة • وهى تنصرف للانسان تارة وللحيوان تارة أخرى •

ولكن هذه الابنية على العموم قديمة ، وان الالفاظ التى وضعت لهذه المعانى من هذه الصيغ تقليداً وحكاية لما كانت عليه الابنية فى اللغة القديمة فى مراحلها الاولى •

وانا اذ انهى هذه المقالة اود أن أقول ان عملى كان استقراء النواحى اللغوية التى يمكن أن تكون مادة مهمة فى مراحل اللغة القديمة ، أما اعطاء صورة واضحة المعالم لهذه اللغة فى تلك المراحل فليس سهلا ، ذلك اننا مفتقرون للنصوص الثابتة المدونة كما فى سائر اللغات الحية •

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى